مركز الدراسات المعرفية

الموسم الثقافي لعام ٢٠٠١

يوليو ٢٠٠١

"محاضرة عن "علم الكلام

أ.د.علي جمعة

مفتي الديار المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله والـــه وصحبه ومن ولاه، في هذه الجلسات سنتحدث بإذن الله تعالى عن مدخل -عن تاريخ- عن عرض عام للعلوم الإسلامية المختلفة، ونبدأ اليوم مع علم التوحيد الذي أطلق عليه أسماء كثيرة فسُمي بعلم الكـــلام وسُمي بالفقه الأكبر وسُمي بعلم التوحيد وسُمي بعلم العقائد وبعلم العقيدة على سبيل الإفراد وهكذا، لأنه يتكلم عن ثلاثة موضوعات أساسية:

الموضوع الأول: هو ديناميات ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى.

الموضوع الثاني: هو ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الرسول ﷺ.

الموضوع الثالث: هي السمعيات وهي الموضوعات التي ليس هناك للعقل شئ في إنشائها ولا نعرفها عن طريق حس، ولا نعرفها عن طريق التفكير، وإنما عرفناها عندما أخبرنا الله تعالى بها فسمعناها فـــسُميت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالسمعيات، وسبب تسميتها بالسمعيات أننا سمعناها من النبي المرسل أو الرسول المبعوث من الله سبحانه وتعالى عندما كان يتلو أيات الله عن طريق الوحي مثل: قضية يوم القيامة فإننا لم نشاهدها ولا يستطيع الإنسان بمفرده أن يتوصل إلى أن هناك يوم آخر سنعود فيه إلى الله للحساب، وأيضاً مثل قضية الجنة والنار، وقضية مشاهد يوم القيامة؛ فمشاهد يوم القيامة لا يستطيع الإنسان بمفرده أن يشاهدها أو يفكر فيها وفي نفس الوقت ليست محسوسة، وأيضاً قضية الجان، وقضية الخلق فقصة الخلق الأولى التي حكاها الله لنا فآمنا بها وصدقناها تصديقاً جازماً ليس لأن العقل أو الحس أو التفكير قد أوصلنا إليها وإنما لأننا سمعناها بأذننا ولذا فقد سُميت بالسمعيات.

إذن فهناك موضوعات ثلاثة: الإلهيات، النبوات، السمعيات وهذا هو أساس علم الكلام أو علم التوحيد أو علم العقيدة أو علم أصول الدين أو الفقه الأكبر إلى غير ذلك من الأسماء التي أُطلقت على هذا العلم، وهو علم من العلوم مثله مثل علم الفقه والتصوف والأخلاق، وهذا العلم هو الذي يوجد في حديث سيدنا جبريل عليه السلام وهو من الأحاديث الصحيحة التي ذكر فيها الرسول r لأصحابه: أتدرون من هذا؟، هذا جبريل جاءكم ليعلمكم أمر دينكم. في هذا الحديث دخل جبريل (الذي ظهر للصحابة في صورة يحيى الكلبي الذي كان مشهوراً بأناقته وجماله ووضأة وجهه)، فكان من يرى جبريل من بعيد يظن أنه يحيي الكلبي، **"قال رسول الله r : دخل علينا رجل شديد بياض الوجه، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، لا يعرفه أحد منا"**، هذه مقدمات سوف تبين لنا أن يحيى الكلبي الذي كان قريباً من قومه ليس هو يحيي الكلبي وإنما هي طريقة سير يحيى الكلبي أو هيبة يحيى ولكن ليس هو شخص يحيى، لا يعرفه أحد منا، فجلس رسول الله r وهو يضع ركبتيه على ركبتي ووضع يديه على فخذيه كهيئة المتأدب المتعلم برسول الله r ، فرسول الله r جالس بعد الصلاة، فأتى هذا فوضع يده على ركبتيه فكأنه يتخشعه (جلسة التلميذ أمام المتعلم)، ومن هنا جاءت جلسة التلميذ بأدب وطلب العلم والمعلم أمامه وصفة التلميذ خشوع وسكون وأدب أمام المعلم الذي هو مرتبة كبيرة بالنسبة لطالب العلم، فالرسول r يعلم الناس حتى الجلوس أمام العلماء لطلب العلم، فوضع ركبتيه عند ركبتي (أي في حزاء ركبتي رسول الله r) ووضع يديه على فخذيه على هيئة المتأدب، وقال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة....إلخ الحديث، قال: صدقت، فقال كيف يسأله ويصدقه، وفي هذا إشارة إلى أنه ليس من السائلين وإنما يريد أن يعلم الآخرين عن طريق سؤال رسول الله r ، قال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله....إلخ الحديث، قال: فما الإسلام؟، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك...إلخ الحديث، وهذا الحديث أخذ

www.manaraa.com

المسلمون منه أن هناك علم يغطي قضية الإيمان، الإيمان بالله والرسل واليوم الأخر والكتب والقضاء خيره وشره، إذن هناك علم التوحيد، فعلم التوحيد هو الذي نشأ فيه هذا الفرع من الدين

(هذا الجزء المهم من الدين وهو جزء الإيمان)، والثاني وهو الإسلام نشأ أمامه علم الفقه ليحفظ الأحكام الشرعية المرعية التي تحافظ على المسلمين صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم ومعاملتهم مع الناس إلخ ما هنالك، وبمحاذاة الإحسان نشأ التصوف حتى نصل لدرجة مباشرة فيها أدب مع الله ونحن نسلك طريق الله سبحانه وتعالى، فكيف نتعلم الأدب حتى لا تحدث لنا فتنة، هذا علم الكلام منشأه حديث جبريل، وتأتي السنة بعد ذلك وكأنها تؤكد وترسخ هذا المعنى (إن هذا الدين له ثلاثة أقسام كبرى: العقيدة، الشريعة، الأخلاق.

فالنبي r يقول: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** (الإخلاص: ١) أحد تعدل ثلث القرآن أي أننا نتكلم عن عمود من ثلاث أجنحة يقوم عليها القرآن وهي العقيدة والشريعة والأخلاق، فعندما أقول ثلث القرآن هنا والحديث يتكلم عن الإيمان يقول: جبريل جاءكم يعلمكم أمور دينكم، ومن مجموع هذه الأشياء ومن غيرها في الشريعة جاز للمسلمين نفسياً وعملياً أن يقوموا بهذه العلوم، وكان الصحابة الكرام يقومون بهذه العلوم، وكان أحدهم فقيهاً متكلماً محدثاً مفسراً وهكذا، ولكن كان أولاً عندهم ملكة العربية، ثانياً: عقولهم صافية، ولديهم درجة عالية من الإخلاص، وتعلموا من الرسول r فعرفوا من الأمور الكثير وقاموا من العلوم بما لم يقم غيرهم فيه، ومن هنا عندما تقدم الزمن بالناس وكان عدد الصحابة ١١٤ ألف صحابي وكان الذين شاهدوا الرسول r نحو ١٣٠ ألف صحابي، ولكن الذين كانوا معه في حجة الوداع ١١٤ ألف صحابي، ومن صلوا عليه r عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى نحو ٢٠ ألف صحابي، ولكن الذي تصدر منهم للفتوى كان ٢٠٠ من ١٣٠ ألف والباقي اتجهوا للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، فالعلماء إذن هم الخاصة وينبغي عليهم أن يعرفوا أن عليهم أمانة وهذه الأمانة ينبغي الحفاظ عليها بقوة، والذي لا يستطيع حملها عليه أن يتنحى عن طريقها حتى لا يضر الناس بغير علم، وعلى سبيل المثال: هناك من استفتى أحد الصحابة أو بعضهم وهو جنب وكان يريد أن يتيمم أو يجدوا له حل لأن به جرح ولو استعمل الماء لأضره، فاستفتوه بأنهم لا يعلمون غير أنه ينبغي أن يستحم فاغتسل فمات، فلما علم رسول الله ذلك فقال قتلوه قتلهم الله هلا سألوا إن لم يعلموا (أخرجه مسلم)، فكان الصحابة يتحرزون من الفتوى ومن التصدر لنقل الكلام إلا إذا كان متيقناً يقيناً ما بعده يقين ومتأكد تأكيد ما بعده تأكيد.

www.manaraa.com

انتشار الإسلام:

وقد جاء انتشار الإسلام عن طريق الجهاد في سبيل الله وعن طريق الاتفاقات لأن هناك بعض البلاد قد تم فتحها صلحاً من غير حرب -كما حدث في مصر لأنها على الأرجح قد فتحت صُلحاً و لم تفتح عنوة- والناس دخلوا الإسلام ببطء فهم لم يدخلوا الإسلام فجأة، فالإسلام انتشر من الناحية السياسية انتشاراً هائلاً في المائة سنة الأولى من الأندلس إلى الهند وسيطر المسلمون على العالم و لم يُجبر أحداً على الدخول في الإسلام لدرجة أنه في السنة الأولى لم يسلم سوى ٢% من مجموع السكان الأصليين في المائة الأولى، وسنة ٢٥٠ كان هناك ٢٥% من مجموع السكان قد أسلموا إذن فالمسألة لم تكن هكذا وإنما جاءت بمعاناة ودرس وأخذ ورد و لم يُحمل المسلمون قهراً للدخول في الإسلام ولذا فقد بقي الإسلام ولو حملوهم قهراً ١٠٠ سنة أو ٢٠٠ سنة لعادوا بعد ذلك إلى الكفر ولكنهم لم يحملوهم للدخول في الإسلام، و٢٥% من الذين دخلوا إلى الإسلام لم يدخلوا بعد فحص وأخذ ورد ولكن كان المسلمون إذا دخلوا بلد تزوجوا من أهلها لأنه ليس لدينا مانع في الإسلام من الزواج من أهل الكتاب لأن الأجيال التالية ستصبح مسلمة، وهكذا بعد ٢٥٠ سنة من المناقشات في جانب والالتحام من جانب آخر فالمسلمون لم يدخلوا غزاة وإنما دخلوا دعاة ولذا اندمجوا مع شعوب هذه البلاد، ومن هنا وعن طريق هذا القبول بين الرجل المسلم والمرأة غير المسلمة لإنشاء الأسرة انتشر الإسلام كثيراً.

تدوين العقيدة:

مع الجانب الأخر الذي يهمنا في هذه المحاضرة وهو جانب العقيدة... كيف دونت؟، ولما كانت على هذا الشكل الذي نجده في الكتب الآن؟، الذي حدث أن دخل مفكرون كثيرون إلى الإسلام بعد مناقشات حادة مع علماء الإسلام، فهؤلاء عندما دخلوا إلى الإسلام لم يخلعوا أفكارهم لمجرد نطقهم بالشهادة فقد جاءوا بالمشكلات التي كانت معهم عندما كانوا كافرين أو مجوس أو وثنيين، فهؤلاء المفكرون والكهنة أثاروا المشكلات التي توجد في الذهن البشري، فالإنسان كإنسان يسأل من أين أنا؟، ماذا سأفعل في هذه الدنيا؟، وماذا سيكون بعد الموت؟، فهو يسأل عن ماضي وحاضر ومستقبل، وهذه الأسئلة تسمى في الفلسفة "الأسئلة الكبرى" ويسأل كل الناس عنها، ولابد أن تجيب كل الأديان عنها، والإسلام يجيب عنها ويقول: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا، وأنزل لنا الرسل والأنبياء والكتب السماوية ليكلفنا بالشريعة فنحن مكلفون، فإذا التزمنا فقد أطعنا وإذا لم نلتزم فقد عصينا، وهناك يوم للحساب والجزاء فهناك ثواب وهناك عقاب، إذن أجبنا على الأسئلة الثلاث فالله هو الذي خلقنا ونحن مكلفون وهناك يوم نرجع فيه إلى الله تعالى وفيه ثواب وعقاب وتكاد كل الأديان أن تجاوب نفس

www.manaraa.com

الإجابات مع بعض الاختلافات في التفاصيل البسيطة التي ليست في أساس التصور، ولكن هناك أسئلة أكثر عمقاً.

ماهية علم التوحيد:

وكل هذه الأسئلة لو تأملناها (وهو هدف هذه المحاضرة والذي يتمثل في أن نضع أيدينا على المحاور أو الموضوع الذي يتكلم عنه علم التوحيد، ولما دون هذا العلم؟، وما المشكلة الأساسية فيه؟).

والمشكلة التي أرهقت البشروالتي يتفرع عنها كل الأسئلة والمشكلات هي العلاقة بين القديم والحادث، ولأننا مسلمون فالإجابات تكون منبثقة من القرآن والسنة وهي أن الله سبحانه وتعالى لا بداية له ولا نهاية، فالله سبحانه وتعالى قديم كان قبل الأكوان وسيكون بعد فناء الأكوان، والله لا يفنى و لم يخلقه أحد وهو قائم بذاته **{ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** (الرحمن: ٢٧)، فالله كائن (قديم) ثم أوجد الكون (الحادث) فالكون موجود فأين الله؟، هل هو خارج الكون أم داخله؟، فذات الله لم يطلع عليها أحد و لم يستطع أحد أن يدعي أنه أطلع على ذات الله حتى عندما ذهب النصارى إلى أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم ذهبوا إلى أنهم رأوا عيسى ولكنهم لم يقولوا أنهم رأوا الله، وبوذا أيضاً عندما ذهب ليبحث عن الإله ليتوحد معه لم يجده فألحد، ولكن علماء الإسلام إيمانهم واضح وقوي فالله واحد ودائم مع خلقه وهو على ما عليه كائن، وهو لا يتحد مع الكون، وهو فوق السموات والأرض والعرش والفرش، وهو خلقنا وكلفنا ونعود إليه، وهو الحي المميت المحي القادر فالكلام واضح، وعندما تعرض عليهم المشكلات لا يشركون بالله وإنما تمثل عندهم إشكاليات فهناك فرق بين عرض هذه المشكلات على سبيل التشكك والتشكيك وبين عرضها على سبيل كونها إشكاليات، لأنها عندما تكون لدي هذه المشكلات مشكلة فسأكون مضطرب وأجلد نفسي هل أنا مؤمن أم غير مؤمن وهكذا؟، ولكن عندما تكون لدي إشكالية فيكون عندي إيمان كامل بالله ومتمسك بهذا الإيمان وأبدأ بالبحث في هذه الإشكالية عن طريق استحضار الدليل وليس التشكك، ووافق علماء المسلمين على هذا التحدي وقالوا سلونا ونحن نجيب حتى نعطيكم الإجابات والبرهان فتطمئنوا وتثبتوا.

لماذا نشأة علم الكلام؟

علم الكلام نشأ للمناقشة وليس لإنشاء الإيمان؛ فالإيمان موجود، وإنما يريد إزالة الإشكال عند الآخرين وإزالة القلق عندنا، فبدأ علماء الكلام القدماء البحث في الأديان وفي كل فكري بشري ووجدوا

www.manaraa.com

أن هناك مشكلة أسموها الذات الإلهية ومشكلة أخرى أسموها الصفات ومشكلة ثالثة اسمها الكلمة ومعانيها فبدأوا يقرأون ووجدوا أربعة مستويات:

- الذات
- الصفات
- الكلمة وهي العلاقة أو القنطرة أو الجسر بين القديم والحادث
- الكون

ووجدوا أن كل الأديان تدور حول هذه المستويات الأربعة التي يمكن أن نترجمها في أذهاننا بكلمات متتالية عمودية، وهنا نقول أين القديم والحادث؟ فهناك من يضع خط تحت الذات ويقول أن ما فوق هذا الخط قديم وما تحته حادث، فمعنى هذا أن هذه العقيدة ترى أن الله حادث ولكن ماذا فوق الخط فقد يكون عدم أو غيره وأطلقوا على ما فوق الخط هذا ألفاظ كثيرة، فالوثنية الأغريقية كانت تطلق على ما فوق الخط قديم وحكيم ومتعالي وموجود ولا يتصف بأي صفة لأنه غيرنا، ونحن كمسلمين نقول ذلك فالرب رب والعبد عبد والخالق سابق ومختلف عن المخلوق ولكنهم لا يفكرون فيه ولا يعتبرونه الله؛ فالله هو الذات وهذه وثنية أرادت للذات أن تكون حادثة وجعلوا لكل شيء إله فهناك إله للشمس وإله للحرب وإله للحب وإله للحكمة إلى آخره وكأنها تشبه وصف الملائكة عندنا.

مما يدل على أن هذه الأديان حُرفت من أديان صحيحة سابقة، لم يستطع أهلها أن يفهموا عما قبلهم أو حرفوها وضلوا عنها وكأن الحقيقة واحدة، إذن فالمذهب الأول وضع الخط فوق الذات ووضع ما فوق الخط الثبات (العدم) أو الشئ الغير معروف وتحت الخط كله حادث، في حين أنزل المذهب الثاني الخط أكثر فأصبحت الذات قديمة وكل شئ بعد ذلك (الكلمة، الصفات، الكون) حادث، فالذات فقط قديمة ولا نعرف عنها شئ أما العلم والإرادة والقدرة والإماتة والإحياء والحكمة والخلق والرزق وكل هذه الحوادث حديثة والذات فقط هي القديمة ووجدت قبل كل هذه الحوادث فالذات قديمة والصفات كلها حادثة، وإذا أنزلنا الخط برهة كانت الذات والصفات قديمة والكلمة والكون حادث، لأن الصفات قائمة بذات ولا يمكن أن يقوم شئ بشئ إلا أن يكون معه ولا يمكن تصور القديم سبحانه وتعالى أن يكون قد حدث به شئ لأن بمجرد حدوث شئ فيه كأننا أوجدنا زمناً حوله بمجرد حدوث ذلك الشئ والله سبحانه وتعالى منزه عن الزمان والمكان، ولا نستطيع أن نصور هذا التنزيه لأننا داخل الزمان والمكان فلا نستطيع أن نتصور حالة اللازمان واللامكان، وعندما نحاول أن نتصور هذه الحالة اللازمانية واللامكانية إنما يمكن أن نفهمها ونصدقها

www.manaraa.com

(لازمان: أي لا يوجد زمن فالشئ يظل على ما هو عليه فهناك استمرار وخلود)، وهذا سببه أننا بداخل الزمان والمكان، فالكلمة قديمة والكون حادث فقالوا كلمة عيسى، ورغم أن الكلمة قديمة وأقدم من النصرانية إلا أنهم جاءوا هنا وجعلوها متجسدة في سيدنا عيسى، وهناك أناس أنزلوا الخط فجعلوا الكون أيضاً قديم وهم الفلاسفة القدماء من أمثال: أفلاطون وأرسطو وغيرهم، ومن المحدثين نيتشة وهيجل حيث ذهبوا إلى أن الكون قديم وثابت على هذه الصورة منذ القدم. ثم جاء علماء الكلام المسلمين وناقشوا هذا الأمر في عشرات السنين ومئات بل آلاف الجلسات من الأندلس إلى الهند مع الكهنة والمجوس والنصارى واليهود والوثنيين والفلاسفة والملحدين وغيرهم، وخرجوا بتصور وهو: إن الكلمة عندنا هي القرآن (كلام الله)، فالكلمة التي صدرت من الله سبحانه وتعالى إلى الكون هي القرآن أو الأنجيل أو التوراة إلى غير ذلك.

وكلام الله هذا فيه دال وفيه مدلول، الدال: هو المصحف الذي كتبناه بأيدينا وطبعناه وحفظناه، والمدلول: هو الصفة التي قامت بذات الله تعالى فالله سبحانه وتعالى هو المتكلم ولديه كلام في ذاته وما لدينا هو صورة الكلام (مرآة الكلام) وهناك فرق بين الكلام وصورته، فهناك فرق بين الصفة التي تقوم بالله وما يدل عليه، ولكن هذا المصحف مجرد دال، ووضع هؤلاء العلماء المسلمين الخط في منتصف الكلمة (جزء من الكلمة تخص القديم تحت الخط وجزء أخر فوق الخط يخص الحادث)، ولذا تم تسمية هذا العلم بعلم الكلام لأنه عندما أتكلم عن هذه القضية (الكلام المشكلة) فلا يوجد عندنا مشكلة في أن الذات قديمة والصفات قديمة وأن الكون حادث، ولكن عندنا مشكلة فيما يتعلق بالكلمة فهل هي حادثة أم لا؟، فالحنابلة يرون أن الكلمة قديمة في حين يرى المعتزلة أن الكلمة حديثة بالنظر إلى المصحف الذي بين أيدينا فسُمي هذا العلم بعلم الكلام لدقة هذه المسألة، فجاء الأشعرية وذهبوا إلى أن ليس هناك مشكلة إذا ما أخذنا على نظرية الدال والمدلول فالدال مخلوق والمدلول غير مخلوق فانتهت المعتزلة و لم ينتهي الحنابلة حتى الآن فما زال هناك حنابلة يصرون على أن كلام الله قديم حتى مع وجود دليل أو اجتهاد على كلامهم ولكن ما زالوا يتمسكون بأن كلام الله قديم، فهو استشكال جاء في اللفظ والمصطلح جاء علم الكلام ليثير ما في أذهان الناس من إشكاليات ومشكلات فماذا تريدون؟ قالوا نريد قضية الصفات (والتي تحدثنا عنها)، فالأشاعرة بعد بحث طويل توصلوا إلى أن صفات الله نوعين:

- **صفات الأفعال**: هي صفات نفيها عن الله لا يحدث عنه انتقاص لله سبحانه وتعالى مثل: لم يخلق الله لفلان أباً أو رزق الله فلاناً و لم يرزق الله فلاناً أو أحيا الله فلاناً وأمات الله فلاناً، فكلها لا تنقص منه سبحانه وتعالى، فصفات الخلق والإحياء والإماتة والرحمة التي يجوز فيها النفي والإثبات لا تنقص منه سبحانه وتعالى.

www.manaraa.com

- **صفات الذات:** تنقسم إلى قسمين:

١. صفة هي نفس الذات: مثل الوجود، فوجود الله هو ذات الله.

٢. صفة زائدة عن الله: وهي إما أن تكون مدلولها عدم مثل قديم (أي لابداية له)، وأنه مخالف للحوادث (لا مثيل له)، وأنه واحد (لا شريك له)، أي عندما تفسر هذه الصفات نستخدم كلمة لا في أول الكلمة، وهذه الصفات تسمى صفات سلبية (وهي الصفات التي عندما نفسرها نستخدم لا)، والقيوم (الذي لا يحتاج إلى أحد وكل المخلوقات تحتاج إليه)، وهو باقي لا نهاية له، وهذه الصفات الخمسة تسمى الصفات السلبية.

٣. وهناك صفات مدلولها وجود وليس مدلولها عدم.

وهذه التقسيمات جاءت عن فكر ومناقشة ومجادلة وإجابة عن أسئلة، ولكن نتساءل ما الحاجة إلى هذا العلم، وهل هذا هو علم التوحيد الذي ينبغي أن نؤمن به؟؟، والإجابة هي لا لأن علم التوحيد الذي ينبغي أن نؤمن به له تاريخ قديم ويمكننا من الوقوف أمام أصحاب العقائد الأخرى ولا نقف مكتوفي الأيدي بل نقدم حلول للمشكلات التي تواجه أصحاب الديانات الأخرى من خلال الكتاب والسنة والتفقه لحل مشكلات العالم الفلسفية، وفي المرحلة التالية كتبوا هذا الأمر على شكل شعر ليسهل حفظه ومعرفته.

وهناك صفات أخرى مثل القدرة: فالله قدير، والإرادة: فالله مريد، السمع والبصر: فالله سميع بصير، والعلم: فالله عليم، وصفة الحياة، وصفة الكلام. وهذه الصفات السبعة بالإضافة إلى الخمسة السابقة وصفة الذات أصبحت ثلاثة عشر صفة، بالإضافة إلى صفات الأفعال التي لا نهاية لها (إنزال المطر، إحياء الأرض، وغيرها من الصفات)، وهذه الصفات يجب أن نؤمن بها وفقاً للكتاب والسنة والعقل والتفكر وإجابة المشكلات عند الناس.

فاستقر أهل السنة على أن الذات والصفات قديمة ومن الصفات الكلام، وأن المصحف الذي بين أيدينا مخلوق، وفيما يتعلق بقضية هل الإنسان مسير أم مخير؟، وهي القضية التي شغلت البشر لفترات طويلة، فإذا كان الله خلقنا وخلق أعمالنا فلماذا يحاسبنا؟، وإذا كان لم يخلق أعمالنا فإذن نحن شركاء معه في الخلق؟ إذن هناك قضيتان سماها العلماء مشكلة العدل والتوحيد، لأني إذا قلت نعم (أني أخلق أعمالي فسأكون مشرك لأني أدعي أني شريك لله في خلق أعمالي)، وإذا قلت لا (أي أن الله خلق أعمالي فمعنى ذلك أن الله ظالم وهو ما لا يمكن أن يكون أبدًا)، فكيف نحل هذه المشكلة؟، وضع العلماء نظرية تسمى (كسب الأشعري) نسبة إلى واضعها حسن الأِشعري والذي رأى أن الله سبحانه وتعالى خلق لنا الاختيار

www.manaraa.com

فاخترنا الصواب وهذا الصواب هو الذي خلقه الله ونحن لم نخلقه ولكن اخترناه فقط، وسيحاسبنا الله على هذا الاختيارالذي نختاره بدون إكراه أو إجبار ثم يحاسبنا بعد ذلك على هذا الاختيار، ويتبين من هذه النظرية أن الله سبحانه وتعالى يستجيب للإنسان في كل الأحوال وهذه الاستجابة تتمثل في استجابة الله لإختيارالإنسان في هذه الحياة، وهنا تتضح رحمة الله سبحانه وتعالى بالمؤمن والكافر بالاستجابة لهما، ولكن الله لا يرضى من الإنسان الكفر ولا المعصية ولكن هذا هو اختياره وصدق الله العظيم إذ يقول: **{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا}** (الكهف: ٢٩) وإرادة الله على نوعين: **إرادة كونية:** يخلق فيها الخير والشر والجمال والقبح والمعصية والكفر والخير وكل شئ.

إرادة شرعية: يريد الله منك الصلاة، والصيام، والحج، والحلال، والبعد عن الحرام، فهناك فرق بين أنه يأمرك وينهاك وبين أنه يستجيب لك فيما اخترت حتى يقيم الحجة عليك، وهذه هي نظرية الكسب للأشعري.

إذن الإنسان مخير ولكن لا يمكن أن ينطبق هذا الأمر على التوحيد، لأن الله يخلق كل شئ بعد وهب الاختيار لك، ويخلق كل شئ بناء على اختيارك هذا فيقيم الحجة عليك ويحاسبك على اختيارك هذا.

فعندما أقوم إلى الصلاة لا أجد أحد يدفعني إلى الصلاة وعندما أتكاسل عنها لا أجد أحد يهددني، فإذا نظرنا إلى البشر نجد أننا نختار كل شئ قطعاً، وإذا نظرنا إلى الله وجدناه قد خلق كل شئ قطعاً، ولكن المشكلة في العلاقة بينهما أو العلاقة بين القديم والحادث، فنحن نشعر بالاختيار في أنفسنا والعقيدة جاءت لتؤكد أن الله خالق كل شئ، وعندما أتصور أن الله خالق كل شئ أجدها معقولة فالله سبحانه وتعالى خالق كل شئ، ولكن المشكلة عندما أخلط بين الأمرين أو أخلط الوصلة بينهما، فكيف يكون الله خالق كل شئ ويحاسبنا، فيسرت المعتزلة الأمر على نفسها وقالت الإنسان يخلق فعل نفسه فالله عادل والله سبحانه وتعالى هو الذات والصفات مخلوقة حتى يهربون من تعدد القدماء في هذه الصفات ولكن وقعوا في ورطة أخرى وهي إشراك الإنسان في الخلق، وكان الأشعري مع المعتزلة ومؤمن بأرائهم أكثر من عشرين عاماً حتى بلغ سن الأربعين ثم تاب إلى الله سبحانه وتعالى وراجع كل هذه الأراء على مدى عشرين عاماً أخرى إلى أن توفاه الله في سن الستين، وذهب إلى أن هذه الصفات ليست هي عين الذات ولا هي غير الذات (والمعنى هنا هو عدم الانفكاك)، ويشبه هذا الأمر بالقماش ولونه فهما لا

www.manaraa.com

ينفصلا مع أنهما ليسا شيئاً واحداً فالقماش شئ واللون شئ أخر، كما أن الإنسان مختار في نفسه والله يخلق عمله (نظرية الكسب الأشعري)، ثم عرض علماء المسلمين كل ما توصل إليه الفكر البشري من تصورات وأخذوا ما يصلح لهم من هذه التصورات وتركوا ما هو معارض للغة أو للعقيدة أو للفكر السليم (أي قاموا بعملية انتقائية) فكل شئ به تصور يأخذونه، فتصور أرسطو عن الكون بأنه أما أن يكون متحيز (له حيز أي طول وعرض ولون وزمان ومكان وانفعال ونسبة) أو غير متحيز (له عرّض).

إن كل شيء في الكون مكون من جوهر (جسم) له حيز ولهذا الحيز أعراض وبتحديد هذه الأعراض يتحدد الكائن (الموجود)، وعندما عُرض تصور أرسطو هذا على المسلمون قالوا إن هذا وصف ولا مانع فيه ولا يتعارض مع العقيدة وأخذوا هذا التصور وصدقوه وردوا به على الفلاسفة والملحدين ونظموا بيت من الشعر ليسهل حفظه على الصغار يتضمن الأعراض العشر التي شملها التصور و البيت هو:

زيد طويل أزرق ابن مالك في بيته بالأمس كان

متكي بيديه غصن لواه فالتوى فهذه عشر مقولات سوى.

ويرمز زيد للكم، وأزرق للكيف (أو الحالة)، وابن مالك (للنسب)، وفي بيته (للمكان)، وبالأمس (للزمان)، وكان متكي (وضع)، بيديه غصن (ملكية)، لواه (فعل)، فالتوى (أثر الفعل).

وهدف العلماء المسلمين من هذا توضيح للكون بأنه متحيز (له جسم وجوهر) أو غير متحيز، والله سبحانه وتعالى بخلاف ذلك (ليس له جسم ولا جوهر ولا عرض)، وهذا مأخوذ من القرآن الكريم **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** (الإخلاص: ١-٤)وكذلك: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** (الشورى: ١١)، فالله سبحانه وتعالى لا يشبه الكائنات لا في الجسمية ولا في التحيز ولا الجوهرية أو عدم التحيز، فهو مختلف عن الكائنات.

هدف العلوم التي استحدثها العلماء المسلمين:

إذن ماذا نأخذ من هؤلاء العلماء المسلمين؟، إنهم كانوا يبحثون كل شئ ولا يأخذون كل شئ يأتي من الغرب فهم يأخذون ما يوافق العقيدة ولا يأخذون ما يخالف العقيدة، وقد استخدموا هذه الأدوات لخدمة العقيدة ولنصرة دين الله ومناقشة الآخرين حتى يسلم الإيمان، لأن هذا لم يكن لإنشاء الإيمان عند المسلمين وإنما لإقامة الحجة على الكافرين، وهناك فرق بين إقامة الحجة التي تحمى بها حفظ الدين والتشكيك وحل مشكلات جديدة لم تكن موجودة من قبل في التصورات التي أخذوا منها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وراجعوها، فأخذوا كلام أرسطو عن التحيز وغير المتحيز والأعراض والجوهر والجسم، وأضافوا نظرية الكسب، وصفات الأفعال وصفات الذات، وبحثوا الأعراض ووجدوا أنها ثلاثة فقط تكفي (وهذا تفصيل فني)، ورأوا أن هناك أشياء تكون موجودة وغير موجودة في نفس الوقت وأطلقوا عليها الأحوال (مثل الحال في النحو، فإذا وضعنا الدفتر خلف ظهرنا ثم أظهرناه فهذا الظهور معدوم، لأنه لم يغير من الوجود ذاته وإنما رأته العين فهذه الرؤية أوضحت ظهور الدفتر أي حضوره)، وهو مشابه للواقع الافتراضي الذي تكونه شبكة الأنترنت التي تتكون من علاقات تكون هذا الواقع الافتراضي، وهذا الحال واسطة بين الوجود والعدم.

والمقصد من كل هذا هو تعلم المنهج وليس دراسة هذه الأشياء فقط، فنحن لا نفكر في الذات وهل هي قديمة أم حديثة أو العلاقة بين القديم والحديث وإن كنا قد فكرنا في قضية الجبر والاختيار، فنحن لا ندرس هذه الأشياء في حد ذاتها وإنما لنتعلم كيف نفكر، فالموجود الآن هو الانترنت وما بعد الحداثة وفلسفة الجندر والعدمية، وهذه الأمور نراها في الأفلام الأمريكية، وفي قرارات الأمم المتحدة، وفي التصرفات حول قضايا البيئة والعولمة والمرأة والطفل.

وأول شيء يجب فعله هو كما فعل هؤلاء العلماء هو تنحية الخوف ثم الإطلاع دون أن يسبب لنا هذا الإطلاع تشكيك وإنما إشكالاً نبحث له عن حل، ثم نعيش عصرنا فلا نرفض كل شئ وإنما نقبله من خلال الكتاب والسنة وما نرفضه نرفضه أيضاً من خلال الكتاب والسنة، فيجب أن نحيا عصرنا وننتبه إلى أن عصرنا هذا يؤمن بالنسبية لا بالإطلاق، وبالتجاوز لا بالثبات، وبالشعبية لا بالنخبة، وبالإنجاز لا بالأخلاق.

وعندما نشأ علم الكلام القديم نشأ لحماية الإيمان وينبغي أن نستمر في حماية الإيمان ولو تحت اسم علم الكلام ولكن الموضوع سيختلف، فكل ما ذكرناه نتعلم منه المنهج وكيفية التفكير والتعامل مع الواقع، وكيف نصنع شئ جديد لديننا في واقعنا، ولا نقف أمام ما ذكرناه فقط لأن قضية خلق القرآن من عدمه، وقدم الذات أم الصفات أم الكلمة لأنها أمور تجاوزتها الأفكار الشرقية والغربية بمراحل كبيرة، ولو وقفنا ندرس هذا في مدارسنا وجامعتنا ولا يستطيع المسلم أو العالم المسلم أو الفليسوف المسلم إلا أن يستعيد هذا فكأننا ندرس التاريخ لأن هذا أصبح خارج الزمان.

شكراً لكم على صبركم وحسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com